



مقدمة:

حين يستند الغني إلى ماله، ويعتمد القوي على بطشه، ويركن صاحب الجاه إلى نفوذه وسلطانه، فإن المؤمن يطرح كل هذه القوى بعيداً ويستند إلى ربها وموجدها ويأوي إلى ركن شديد داعياً ربه متضرعاً إليه.

وحيث تحل النكبة، وتستحكم البلية، وتتكسر النصال على النصال، وتكون ظلمات بعضها فوق بعض، فلا يملك المؤمن إلا أن يطرح ضعفه بين يدي رب القوي الجبار.

وحيث تسلك الطرق فتجدها قد سدت، وتطرق الأبواب فتجدها قد أوصدت، وتطلب العون من أهل العون فما ثم إلا عاجز أو جبان، فاعلم أنه إنما سد عليك الأبواب كلها لتطرق بابه، وقطع عنك الحال كلها لتعتصم بحبله، وأنه اشتاق لأن يسمع منك الدعاء والتضرع والمناجاة.

ولعم الله كيف يشعر العبد بقرب ربه منه وبقربه من ربه إذا لم يدعه ويناجه ويطلب منه ويبت همومه وأشجانه بين يديه.

(إِنَّمَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسْ تَجِبُوا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشَدُونَ) (البقرة 186)
(..وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف 56)

وتأمل هذه الآية، دعاء فاستجابة فاستخلاف: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (النمل 62)

يقول ابن القيم رحمه الله: (دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها، فما دخلت من باب إلارأيت عليه الزحام، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت بباب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وواسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه) (تهذيب مدارج السالكين/229)

عنصر الخطبة:

أولاً_ الدعاء:

أـ الدعاء من أسباب الثبات.

بــ حال أصحاب الأنبياء في الجهاد.

جــ حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر.

دــ حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق.

هــ الدعاء عند القتال لا يُرد.

وــ تأثير المعاصي.

ثانياً - الذكر:

أـ الصوت في المعركة يؤثر في العدو.

بــ المسلمين سيفتحون القدسية بالتهليل والتكبير.

أولاً_ الدعاء:

أـ الدعاء من أسباب الثبات:

قال تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَائِلَتْ وَجْنُوْبِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبَرْأَ وَتَبَتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ...)(البقرة 250 – 251)

ولا شك أن الدعاء والتوجه إلى الله - تعالى - في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوةً وعزيمةً ومصابرةً للشدائِدِ. (تفسير المنار 4/142)

و خاصة إن كان العدد قليلاً، كما كان حزب الإيمان من أصحاب طالوت في هذه الآية. (انظر تفسير ابن كثير 1/669)
فكيف لو اجتمع قلة العدد مع قلة الناصِرِ مع كثرة الخاذلِ مع قوةِ العدو؟!

بــ حال أصحاب الأنبياء في الجهاد:

وهذا ما أرشد الله إليه المسلمين في غزوة أحد وقد أصحابهم ما أصحابهم، فضرب لهم مثل الأنبياء السابقين ومن قاتل معهم، وكيف صبروا على ما أصحابهم في سبيل الله وماذا كان قوله؛ فقال تعالى: (وَكَأَيْنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرُ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَاتَّهُمُ اللَّهُ تَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنَ تَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *) (آل عمران 146 – 148)

فكأن الله يقول لهم: [فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا، والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها. وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق، وقوله الصدق. [والله يحب الصابرين] يعني الصابرين على الجهاد]. (تفسير القرطبي (4/231

جــ حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر.

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر يضرع إلى الله بالدعاء وقد رأى كثرة عدد المشركين وقلة عدد المسلمين، فكيف كان حاله؟

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال:(لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين

وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداوه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا النبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجذب لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: (إذ تستغثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) (الأనفال: 9) فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زمبل: فحدثني ابن عباس، قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتند في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدِّم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خَطَمَ أنفه، وشق وجهه، كضربة السُّوطِ، فاخْضَرَ ذلك أجمعُ، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة"، فَتَلَوْا يومئذ سبعين، وأسرعوا سبعين،...) (مسلم / 1763) وقد قال الله عز وجل بعدما بشر المؤمنين بالملائكة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوْهُمُ الْأَبْيَانَ) (الأنفال 15)

دـ حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق:

ويوم الخندق يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطيء: (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزل السكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الآلى قد بَغَوا علينا، إذا أرادوا فتنة أَبِينَا) (البخاري - الفتح 6 / 2837) وهذا لفظه. ومسلم (1803).

هـ الدعاء عند القتال لا يُرد.

- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثنتان لا ترداان أو قلما ترداان؛ الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا) (رواه أبو داود / 2540، وصححه الألباني).

- عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهم (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف)، ثم قال: (اللهم منزل الكتاب، وجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم) متفق عليه.

- وعن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزى قال: (الله أنت عضدي ونصيري بك أحول، وبك أصول وبك أقاتل) (رواه أبو داود / 2632)

- وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خاف قوما قال: (الله إنا نجعلك في نحورهم ونعود بك من شرورهم) [رواه أبو داود / 1537، وغيره، وصححه الألباني].

وـ تأثير المعاصي.

إن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وإن الطاعة والاستقامة من أسباب الثبات والنصر والفالح. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيَئِتُّكُمْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: 7)

ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين، إن نصروا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبتت أقدامهم، أي عصهم من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج 40)

ولهذا أرشد الله أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم الذين هُزموا في غزوة أحد بمعصيتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم في النزول من على جبل الرماة، أرشدهم إلى أن يقولوا كما قال أصحاب الأنبياء السابقين: (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) آل عمران 147

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المجاهدين على الجبهات في أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتهموها بالتحسير والإسراف، فإنما يُؤتى المسلمين من قبل تقصيرهم.

قال صاحب تفسير المنار رحمة الله: [ومنها أن الذنب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وأن الطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والفالح؛ ولذلك سألا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف، وأن يوفهم إلى دوام الثبات]. (تفسير المنار 142/4)

وإذا علم الله من عباده صدقًا هيا لهم كل أسباب الثبات ومنها إنزال الملائكة تقاتل معهم، قال تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبِّعُوا الدِّينَ آمَنُوا سَلَّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوهُمْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (الأنفال 12)

وقد كان القادة يهتمون بدعاي الضعفاء والمساكين وطلبة العلم، فهذا نور الدين محمود زنكي رأى أصحابه منه كثرة إنفاقه على الفقراء والمساكين ولا سيما طلبة العلم، وشدة طلبه الدعاء منهم، فعوتب في ذلك فقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراش بسهام لا تخطئ - يريد الدعوات - وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأني بسهام قد تصيب وقد تخطئ" (من كتاب صفات رابحة 69)

ثانياً - ذكر الله:

إن المسلم ينبغي أن يكون دائم الذكر لله تعالى ليكون دائم الاتصال به، والمجاهد أحوج الناس إلى ذكر الله لأنه يتطلب معية ربه في القتال، فمن أقوى ما يثبت المجاهد في المعركة هو شعوره ويقينه بأن الله معه ومؤيده ومدافع عنه.

واستجلاب معيه الله تكون بذلك فقد روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث القدسي: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...) (البخاري / 7405 - مسلم / 2675) ومن كان الله معه فلن يُغلب ولن يُخذل؛ فالMuslimون يستمدون قوتهم من الله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ) (هود: 66) والأعداء يستمدون قوتهم من الشيطان (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) (النساء: 76) (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أَوْلَيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) (النساء: 76)

والأعداء لما نسوا الله ونسوا ذكره جعلهم الله من الخاسرين المغلوبين، فقال تعالى: (اسْتَحْوِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المجادلة: 19) بينما ذكر في آخر السورة أن حزب الله هم المفلحون.

وليس رفع الصوت بالذكر والتکبير عند المعركة هو المطلوب فقط، بل ينبغي أن يكون المجاهد ذاكراً لله في سره أيضاً، خاشعاً تائباً متبتلاً مقبلاً على الله معترضاً بذنبه وتقصيره وذله بين يدي ربه.

واسمع أخي المجاهد إلى هذه الصفات التي ذكرها ربنا عز وجل بعد العقد الذي أبرمه مع المؤمنين المجاهدين: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَبْعِكُمُ الَّذِي بَأَيَّعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالثَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ) (التوبه 112-111)

أـ الصوت في المعركة يؤثر في العدو.

إن ذكر الله تعالى في المعركة يؤثر في العدو وهو من أسباب الثبات، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاثْبُتوْا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الأفال 45)

وقد ثبت أن التكبير يؤثر في العدو ويخيفهم ويردهم على اعتقادهم، وذلك باعتراف بعض الجنود من العدو.
روى جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل) (رواية الحاكم وابن عساكر، صحيح الجامع الصغير 5/5108)

ورواه أنس أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة) (رواية أحمد والحاكم وابن سعد وأبي نعيم والخطيب وابن عساكر، صحيح الجامع الصغير 2/5082)
فبالله عليكم إذا كان هذا صوته فكيف يزدنه وقوته ورحمه وسمه؟!!

وقد بوب البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد: "باب التكبير عند الحرب"، وأخرج فيه بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: (صَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ وَقَدْ خَرَجُوا بِالْمَسَاحِيِّ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا هَذَا مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، فَلَجَؤُوا إِلَى الْحَصْنِ فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدِيهِ وَقَالَ: (اللَّهُ أَكْبَرُ خَرَبَتْ خَيْرٌ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةَ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَّاجُ الْمَنْذَرِينَ). (البخاري 3647) الخميس: يعني الجيش.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قوله: "باب التكبير عند الحرب" أي جوازه أو مشروعيته.

إلا إذا كان في التكبير إفساد لخطة العمل العسكري عندما يحتاج لهدوء وتسلسل إلى مقرات العدو مثلاً فعند ذلك لا يشرع .
وقد قال ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاثْبُتوْا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء..]

وعن قتادة في هذه الآية قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف.

وعن عطاء قال: وجوب الإنصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم] (تفسير ابن كثير

(4/62)

بـ المسلمين سيفتحون القسطنطينية بالتهليل والتكبير.

روى مسلم عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سمعت بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر ؟ قالوا نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسرائيل فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهام قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبيها الآخر ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيفرج لهم فيدخلوها فيغنموا..) (مسلم 2920)

قال الشيخ صفي الرحمن المباركفوري: (فيفرج لهم) أي فيكشف لهم ويفر العدو.. وهذا الفتح المذكور في هذا الحديث إنما يحصل بهتاف التكبير دون القتال.. أ.هـ [منه المنعم في شرح صحيح مسلم 4/365]

فيسحب للمجاهد التكبير وذكر الله في المعارك ورفع الصوت بذلك، لما في ذلك من مقاصد شرعية؛ كثبيت قلوب المؤمنين، وإرعب الكافرين والمرتدین، وهذا أمر موجب معروف، والقصص فيه كثيرة مشهورة، والله أعلم.
أما ما ورد من كراهة رفع الصوت في القتال فالآحاديث في ذلك ضعيفة كحديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَمَنُوا لِقاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاثْبُتوْا، وَأَكْثُرُوا نِذْكَرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ صَيَّحُوا وَأَجْلِلُوا، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمَدْتِ». أما حديث قيس بن عباد، قال: «كَانَ أَصْحَابُ الْبَيْتِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْرَهُونَ الصَّوْتَ عِنْدَ الْقِتَالِ» (رواية أبو

داود/2656، فهو صحيح موقوف على قيس بن عباد كما قال الألباني). وقد ضعفه بعضهم لأنَّه حديث معنون، وقيس بن عباد ليس صحابيًّا وحديثه مرسل.

وحتى لو صح شيءٌ من الأحاديث في ذلك فهو في غير الذكر لله تعالى. والله أعلم.

المصادر: